في معرض الثورة ...

بقلم جليل كمال الدين

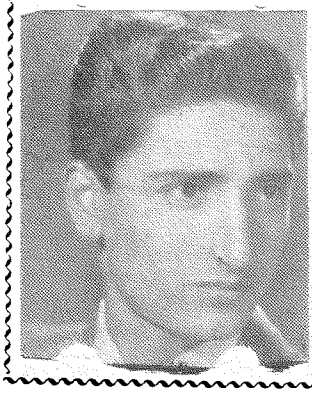

دراسة لمعرض الثورة المقام في بغداد من ١١ ايلول حتى ٢١ ايلول ١٩٥٨

تقديم :

اذا كانت الثورة العراقية ، في ١٤ تموز ١٩٥٨ ، وهي امتداد منطقي وتطور حتمي لنضال الشعب العراقي الثوري منذ نهاية الحرب العالمية الاولى ، عبر أربعين سنة خلت ، اذا كانت هذه الثورة حدثا استثنائيا من احداث الشرق العربي في القرن العشرين ، فان هذا المعرض الذي نتحدث عنه هنا ـ معرض الثورة ـ هو الاخر يمكن ان يكون حركة استثنائية في تاريخ الفن العراقي الحديث ، وانعطافا لا بد منه نحو مستقبل نضالي أرحب للفنانين العراقيين الملتزمين .

ان جذور هذا المعرض يمكن ان تمتد في الاربعينات من قرننا هذا ، حين كانت الاخيلة الثورية ترهص في محاولات بعض فنانينا المجيدين ، وهي يمكن ان تتوضح اكثر فاكثر في الخمسينات من هذا القرن ، حيث انطلقت عدة جماعات بعدة اسماء مختلفة ، كان منها « جماعة الرواد » و « جماعة بغداد للفن الحديث » ، و « جماعة الانطباعيين » ، و « اسرة الفن المعاصر » . ولا يضير كون ان نسبة لا يستهان بها من الفنانين كانت قوقعية ، تافهة المعطى ، وانها كانت في خدمة العهد البائد في الميدان الفكري والفني . فالحقيقة التي لا مناص من ذكرها ان نسبة اخرى محترمة من الفنانين الشبان وغير الشبان كانت مؤمنة ـ وطليعية ، في حدود ما تستطيع ، في رسم وتفنين واقعنا البائد في العهد البائد . وعلى سبيل المثال وليس الحصر نشير الى محاولات صبري ونوري الراوي وكاظم حيدر وغيرهم ..

واذا كان العهد البائد قد منع كل انطلاقة ثورية سياسية او ادبية او فنية او فكرية ، فان فنانينا الواقعيين ما كانوا ليمنعوا مواكبتهم النسبية والجزئية ، بفعل العوامل الذاتية والموضوعية ، لحركة شعبنا الوطنية ، ولموكب العروبة المتحرر ، ولركب الانسان العالمي الظافر .. كانوا يرسمون رامزين .. ملغزين .. مشيرين .. مومئين .. ملمحين .. واحيانا ، في ظروف مناسبة ، يصرحون ويعلنون بالمحتوى الفكري الثوري للوحاتهم ومنحوتاتهم وابداعاتهم . وليس من الصحيح ان نقول ان فننا العراقي كله كان فنا قوقعيا الهائيا تحذيريا ارستقراطيا عبر عن حس وخيال وواقع الطبقات الحاكمة والمتصلين بها آنذاك .. ولكن في الجانب الاخر كان

فجر ١٤ تموز ـ لوحة للفنان سعد الطائي

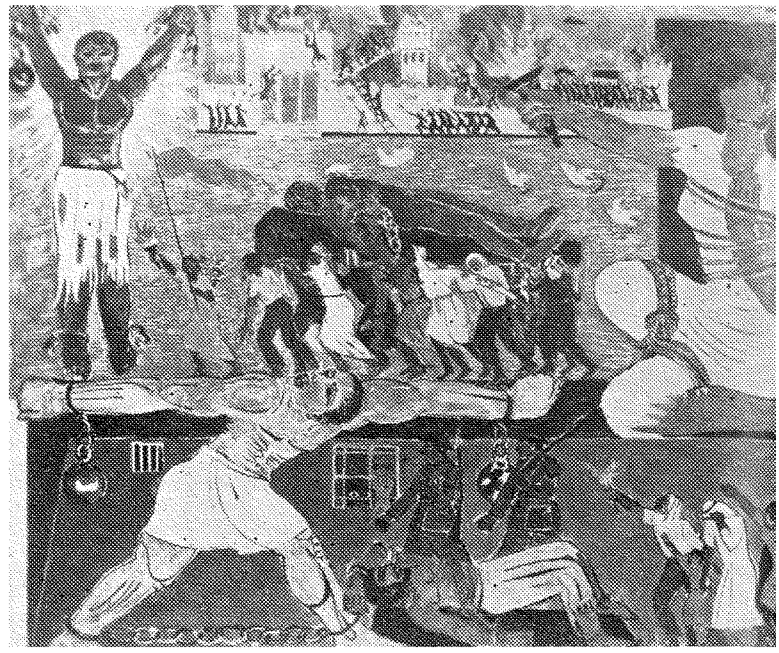

من وحي الثورة ـ للفنان طارق مظلوم

قطاع محترم من الفنانين يوالي ، بكل الوسائل ـ لا نعفيه من قصوراته ونقائصه الموضوعية والمضمونية والتكنيكية ـ عرضه الجزئي للواقع ، وللحياة ، وللصراع الانساني ..

وليس هذا المقال كافيا للبحث التفصيلي المدقق عن جذور الفن العراقي الثوري ومستقبله ، ولكنه يستطيع ان يوميء فحسب الى ما اردنا ان نقول ـ وعهدنا ان نقدم ذلك في بحوث ودراسات مستفيضة في وقت قريب ، بعد ان انزاح الكابوس ، وولى الظلام الى حيث لا رجعة ـ ، ولنعد الان لمواجهة معرضنا الذي نبحث ، بايجاز ، بشكل مباشر ، بعد ان واجهنا بعده التاريخي والتطوري .

وليس اصح وانسب من ان نترك هذه الجماعة من الفنانين الاحرار ـ الذين بلغ عددهم ٦١ فنانا ليتحدثوا لنا عن معرضهم ، ولادة ومخاضا ، وفكرة وشعارا ، ثم لا بد ان ندرس ، نقدا موضوعيا علميا ، ابداعات هؤلاء الاخوة الفنانين عبر الثلاثي التعاوني للموضوع والمضمون والشكل .

يقول هذا القطاع من الفنانين الاحرار لجمهورهم :

« ولدت فكرة هذا المعرض في الايام القليلة التي اعقبت احداث الثورة المجيدة ، واذا كان من سبب يربطها بتلك الاحداث ، فهو انما يتمثل بالتجربة المشبعة بالاحساس الذهني الرائع التي عاشها الفنانون وهم يجدون ان حلمهم الكبير قد تحقق على شكل حاسم من اشكال الحكم المعاصر ، ذلك الحكم الذي وهبهم الحرية الكاملة في اختيار طرق التعبير عن ذواتهم وذوات الاخرين .

« ولقد كان من ادعى واجبات الفنان العراقي بالتحقيق ـ وهو يعبر هذه المرحلة الدقيقة الحاسمة من تاريخه الحديث ـ الاحساس بانه انما يواجه حاجات مستجدة متنامية تتسع باتساع الافق الجديد ، وتعمق بعمق مداه . وانه لكي يفعل شيئا في تقدير موقفه منها ، فليس عليه الا ان يعتبرها فروض عبادة نقية خالصة تؤدى لارض حبيبه ولشعب حر كريم .

« وهكذا فقد عمد الى العمل منذ اللحظات الاولى التي شعرفيها بانهواء الحرية الناعش يملأ رئتيه ، ووثب يحمل شعلة الوانه ليضع نورها في خدمة الشعب ، بعد ان كانت تضيء مدارج القصور . لقد أغمد الماضي سيفه الرهيب في قلب الحركة الفنية ـ كما فعل ذلك في سائر جوانب الحياة ـ ، وحملها على ان تقف ابدا في خدمته .. تزين حياته، وتهبها الجمال والنور ، وتمنعانه عن الشعب الذي انجبها .. وهكذا فقد سار الفنانون في موكب امسهم القريب وليس فيهم من يستطيع ان يعمل باخلاص تام او يعبر عن افكاره بحرية وانطلاق .

« ان معرض الثورة يمثل نقطة الانطلاق الى فن عراقي جديد ، وسيكون متمتعا بالخصب ، والعمق والعالميه .. فن مستقبلي متفائل يضع قيمه الفكرية المثلى في خدمة الشعب ، ومجد الشعب . وهو الى ذلك ، يعبر عن الوحدة الفكرية القائمة بين اهداف الثورة وتطبيقاتها في ميادين الحياة . فاذا كان لا يحمل من تلك الملامح شيئا يجمل بسكان الابراج ان يدعوه عملا فنيا متكاملا ، فهو لن يعدم امورا تجعله اقرب الى افهام الناس والى قلوبهم على السـواء ...

« انه ليس باكثر من تحية قلبية مفعمة بالاخلاص لقادة الثورة ورجالها الافذاذ .. انه ليس باكثر من تحية قلبية للرجل العظيم الذي قاد شعب العراق الى شاطيء السلامة .. الزعيم الركن عبد الكريم قاسم ... انه تحية لفجر السلام والحرية الذي انفتح على الافق الاوسع في يوم ١٤تموز»

وبمناقشة هذا التصريح الواعي الملتزم للفنانين العارضين ـ بعد شهرين فحسب من ثورتنا المجيدة ـ يتبين لنا ان المعرض يراد منه وله ان يكون نقطة انطلاق نحو فن عراقي جديد .. خصب وعميق وعالمي .. وانه قريب الى قلوب الناس .. وانه تحية قلبية للثورة وفجرها وابطالها .. فهل كان معرضنا هذا نقطة الانطلاق حقا .؟! وهل حمل معرضنا الثوري هذا سمات الفن العراقي الحديث ؟ وهل عاش الفنانون العارضون تجربة الثورة وواقع الثورة ، وهل نبضت عروقهم الى الحد الاقصى متحسسة محتوى الثورة الحق .. والوجود الثوري الجديد .. والدم الثوري الباني الواعي ، الدفيق ..؟! هل استوعب فنانونا العارضون روح الثورة ومنطلقها الابعد ـ وابعادها كافة ؟.. هل كانوا طليعيين في الشكل والمضمـــون والموضوع ؟ هل أدوا التحية كما يجب ؟

لنقل ، قبل كل شيء ، ان فترة شهرين ليست كافية ، بأي حال من الاحوال للاستيعاب المدفق الواعي والمسؤول للثورة العراقية ، ولايماثورة خصبة المعطى وانسلنية الشمول . ولنقل ايضا ان الفنانين العارضين لم يكونوا كل القطاع الحر والواقعي والتقدمي من فنانينا العراقيين .. فثمة فنانون بارزون ، كانت لهم محاولاتهم وابداعاتهم الثورية في العهد البائد، مثل محمود صبريوجواد وعبود فائق والقصاب وقتيبه ... ولا يضـير

١٤ تموز ـ لوحة للفنان اسماعيل فتاح الترك

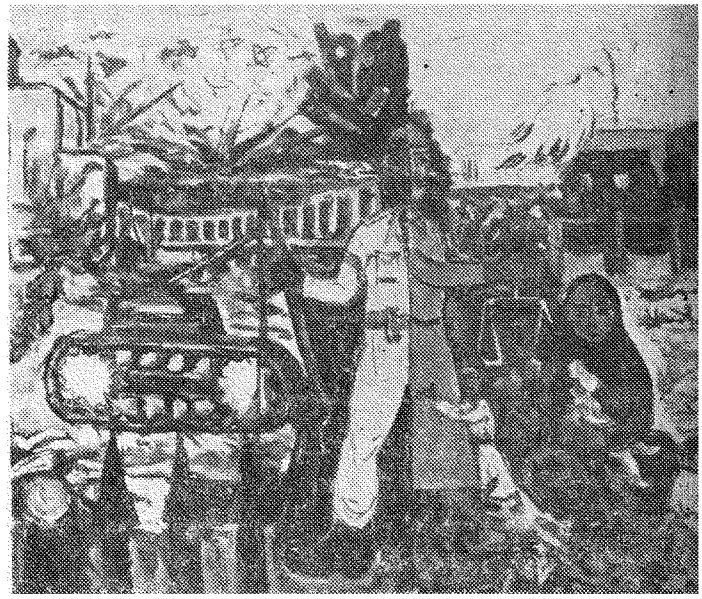

الحرب والسلام ـ لوحة للفنان عبد الامير القزاز

ان هؤلاء كانوا مختلفين في الاستلهام ، وفي المدى والعمق الانساني نزعة ورسالة ، وفي المعالجة الواقعية .. فالصحيح انهم قطاع لا بد منه لدعم جماعة الفنانين الاحرار العارضين.. فالفن ملك الشعب .. والفنان وفنه ملكا الانسانية والجماهير ... ولست اريد ان اعتذر عن قصورات هؤلاء وبطئهم عن السير بقافلة العارضين ، من حيث الزمن ، الا انيَ اريد ان اقول ان التسرع ، وقصر الوقت ، والتعجل والحماس ، مضافا الى التباطوء ، والكسل ، وعدم التشرب والاستيعاب المؤمن والكلي والتام بمحتوى ورموز ومعطيات ثورة الشعب العراقي ، قد حرم المعرض الاول لفن الثورة، من كثير من الامكانات السخية، ومصادر العطاء التكنيكي والمضموني على حد سواء..

ان كل ثورة شعبية في هذا الوقت ، يمكن ويجب ان تطفح برموز متماثلة متشابهة فحمامة السلام ، والدم المتدفق من ضحايا الشعب .. ومن شهدائه ، وعجلة التاريخ ، والشعلة الثورية ، وشبابيك السجون ، ورايات المعارك ، والرشاشات والبنادق والدبابات ، وزخم الجنود والجماهير عمالا وطلابا وكسبة ومثقفين في الانطلاق الثوري ، والحقول المعفرة بالدم ، وآيات التفسخ الخلقي والفكري في الحاكمين ، وبومة الحرب ، وغول الاستعمار ... كل هذه رموز ثورية شعبية انسانية لا يمكن لايما ثورة شعبية ، ظافرة او غير ظافرة ، تجنبها واهمالها . لكن وجه الاشكال هو في ابراز المضمون الثوري بشكل سليم .. بشكل ثوري هو الاخر .. فلا يمكن رسم الثوار في المعركة في اجساد متميعة ترقص .. ولا يمكن ابراز السلام الظافر في جهنم من الدماء والجماجم .. كما لا يمكن تصوير الثورة على انها فتنة ومجزرة تعج بالدم والاذرعة والجثث ، بشكل همجي .

ومتى ما رسمت الثورة ، واقعا وتطورا ومستقبلا ، بمثل هذا التكنيك الساذج والفوضوي ، فقدت الثورة ، فنيا ، بعدها الصحي ، وتعرضت معارضها للمرض . ومن الجدير بالذكر ومن حسن الحظ ايضا ، ان معرضنا لم يرسم الثورة بهذه السذاجة ، ولا بهذه الهرجلة .. انما الذي حدث هو ان المعرض حفل بالوان متباينة ، ومدارس مختلفة ، واشكال عديدة من فنانين مختلفين في العطاء، متماثلين في الفكرة، متوحدي الايمان الثوري، سليمي النية .. ولان المعرض كان ديموقراطيا ، بشكل استثنائي ، فقد ضم جهودا مختلفة من اصغرها وفني كليث المميز الذي لا يتجاوز الثالثة عشرة من سنه .. الى الفنان البارز والكهل اكرم شكري .

ومن مميزات المعرض ايضا تقديمه لفنانين جدد كعلاء حسين بشير وعبدالله امين وسهيل الجزائري وتامر عارف وبهيجة الراوي وهشام سيدان وليث المميز وطارق الخيلاني ..

على ان الاهم من ذلك كون المعرض قد طفح ، بشكل جزئي ، بارهاصات الصور الجدارية .. وهي صور رائعة ، نسبيا ، ويمكن ان تقرن بتحفظ الى صور الفنانين المكسيكيين الجداريين عقب الحرب العالمية الاولى ، وعقب ثورتهم الشعبية الظافرة . ان ثمة وجوها للمقارنة بين الفن المكسيكي الجداري وبين هذه اللوحات التي عرضها فنانون مثل نوري الراوي وكاظم حيدر وطارق مظلوم واسماعيل فتاح وخالد الجادر. والاهم من هذا ان نذكر ان محمود صبري بلوحتيه الجداريتين « جحيم دانتي » و « مجزرة في الجزائر » كان قد وضع الاساس اللائق والمتطور لمثل هذا الانعطاف نحو الفن الجداري ، الذي هو في صميمه جماهيرية في العطاء الفني ، وتفهم شعبي صادق للانسان المتفرج في قطاعه المجتمع وقطاعه الفرد .

ومما يجب ان نذكره ، لوجه الحقيقة الموضوعية التاريخية ، ان معرض المرفوضات ، وهو معرض رفضته لجنة معينة خلال العهد الاستعماري البائد ، وأداه للجمهور الحكم ، لفيف من الفنانين كان بهم المجيد مثلما كان بينهم المتحذلق والساذج ، مضافا الى معرض الجزائر الذي منعه المسؤولون والانتهازيون ، بعد ان قرر عرضه كحصة لفنانينا في معركة الجزائر البطلة ، اقول ان كلا هذين المعرضين ، مع الانطلاقات الثورية الفرادي ، والمفلفة حينا ، والمنطلقة حينا اخر ، كانت قد عاونت كلها فيي تدعيم جذور هذا المعرض الثوري ، وفي تقديم المحترى التطوري ، والبعد المقارن ، والجوهر الصراعي المؤوب ، فيه.

وان أفاد هذا في شيء ، فانه يفيد في ان لمعرضنا الذي نبحث تاريخا وجذورا ودعامات طيبات ، فلنر اذن ، هل افاد الفنانون الاحرار العارضون من حريتهم بعدالثورة .. وهل استطاعوا استيعاب الثورة ، محتوى وابعادا وتطورا وصراعا ومستقبلا ..

المنحوتات

وتبدهنا حقيقة قصر الوقت ، والتعجل ، وعدم امكان التحسس والاستيعاب،لدى بعض الفنانين النحاتين..حين نطوف المنحوتات في اول معرض للثورة . فليس سوى ستة نحاتين امام ٥٥ رساما ، وليس سوى سبع منحوتات قياسا الى ١٢١ لوحة . وان كان لهذه الارقام دلالة فهي ان النحت في معرض الثورة ، قد تخلف ، بشكل مؤلم ومذهل ، عن الرسم ، وهي ان النحاتين لم يستطيعوا الافادة، بشكل كلي وتام ، من فترة شهرين بعد اليوم ، وهي فترة قلقة ، مضطربة ، متوفزة .. وهذا هو السبب الذي منع مثل جواد ، وهو نحات بارز ، والوردي وغيرهم من الاسهام في حصة النحت الثوري .

مسرحية العهد البائد ـ لوحة للفنان اكرم شكري

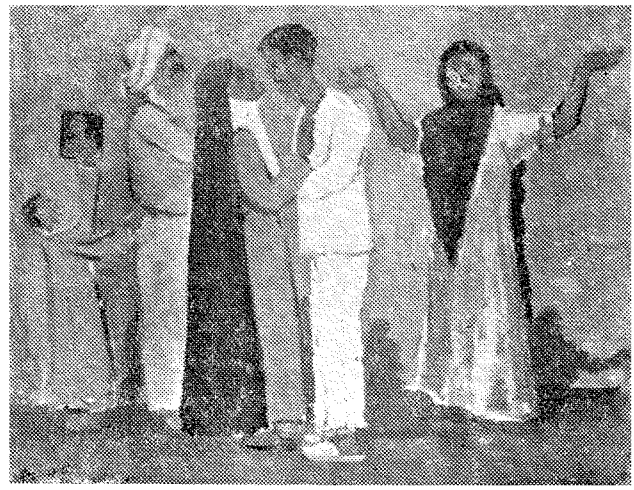

عودة السجين ـ لوحة للفنان مهدي البياتي

ويجب ان نقول ان النحت هنا كان ، على قلة كميته ، دسما ، نسبيا في نوعيته ..وهو نحت ثوري ، الى حد ، فيمحتواه وليس لانه قد دعى او سمي باسماء تتصل او تتعلق بالثورة .. فالحق ان الفن الثوريفن جذري الحلول ، واقعي العروض ، انساني الرسالة .. وهو فن يوجد في عهد الاستعمار ، ويتطور في عهود الثورات الشعبية ، فهو اذن ثوري في محتواه وجوهره وليس في اسمه والفاظه ومزاجه .

ويمكن ان نقول ، مع بعض التحفظ ، ان عبد الحسين محروس في منحوتتيه : « قبل الحصاد » و « لقد تم الحصاد » كان سخي العطاء حقا. فالرمز لديه طيب ، والتأني والاستيعاب في نحته واضح ، هذا الى ان اطار المنحوتتين العام كان يتعاون مع المحتوى تعاونا عضويا وظيفيا .. فجاء الشكل ، جراء ذلك ، تعبيريا يعتمد التشويه ، لحد .

اما منحوتات الفنانين عاصم سليمان « ثورتنا » ، وعبد الرحيم الوكيل « صرخة الاحرار » ، وعبد الجبار احمد « ثورة الشعب » ، فهي منحوتات جاءت متعجلة ، سريعة ، وقد كان في امكانهم ، وتشكيلاتهم تنم عن مرونة وحذق، ان يتأنوا اكثر ، ليجيء المضمون مندمجا بموضوعه ، وبالشكل المناسب .

ولفخري رشيد منحوتة فريدة في دلالتها وفكرتها ، وهي بعنوان « الشعوب تحتضن السلام » ، الا ان السرعة والقلق دمغا المنحوتة بشفافية باهتة ، ومثل ذلك يمكن ان يقال عن منحوتة ميدان السعدي « الوحدة » التي اظهرته متخلفا ، لكل ألمنا ، عن منحوتاته السابقة ..

المرسومات

ان التحليل النقدي العلمي لمرسومات المعرض يكشف عن امور عدة جديرة بالملاحظة والذكر . فمن ناحية كان المعرض معرضا لمزيج كثيف من الهواة والمتمرسين والناشئين والبسطاء ، ومن ناحية اخرى كان المعرض ذاته خصب الكمية ، نسبيا ، ويتراوح بين السذاجة والعمق وبين العادية والاصالة ، والقوقعية والشمولية ، في ما يخص النوعية . وقد سبق ان اشرنا في مقالات نقدية سابقة عن معارض فنية سابقة ، نشرتها لنا « الاداب » ، الى اهمية تطوير الناشئين والبسطاء ، والى ضرورة التثقف الفني ، والثقافة العامة والعلمية لعموم الفنانين باعتبارهم مواطنين ومهندسي نفوس ، وباعتبارهم طليعيين في المعركة الفكرية ضد الاستعمار والظلام والرجعية ..

والتحليل ايضا يكشف عن مجموعتين فنيتين ، الاولى هي مجموعة الجدد الذين سبق الاشارة اليهم ، والثانية هي مجموعة الفنانين الهواة والمتمرسين ، وذوي المحاولات السابقة ، كما انه يكشف ، ايضا عن تصنيف لمحاولات المجموعة الثانية الى قسمين : محاولات اصيلة ناجحة ، ومحاولات ناجحة ايضا لكنها عادية وكان يمكن ان تكون احسن واعمق واخصب .

فبالنسبة للمجموعة الاولى نستطيع ان نلحظ الاندفاع النبيل ، والحافز الوطني الشريف الذي حفز كل هؤلاء الفنانين الجدد لرسم ثورتنا التي فتقت المواهب ، وفتحت الينابيع والبراعم ، لدى كل موهوب وخالق ومبدع . فسهيل الجزائري يعرض اربع لوحات هن : «معركة الجسر» «هو الشعب» « أين العدل ؟ » ، « الاقطاع » .. ومن كل هذه اللوحات تبدو « معركة الجسر » في تخطيطها طيبة نسبيا ، الا ان التوزيع اللوني فيها كان متعجلا متسرعا . اما بهيجة الراوي فتشكيلها الورقي « قدم طفلي في عالم خرب » كان يمكن ان يكون اروع لو احتضن الوقت المناسب ، والاستيعاب الواعي ، ومثل ذلك يمكن ان يقال عن لوحات الفنان علاء حسين بشير « تحت ظل السلام » ، « ثورة واعمال » و « اذا الشعب يوما ... » ، و « لن نموت » والتي تتبدى منها لوحة « تحت ظل السلام » متبرعمة بالموهبة الاصيلة وبالخصب المضموني ، مثلما تتضح في لوحة « اذا الشعب يوما » الكفاءة التكنيكية النسبية .

اما الفنانان هشام سيدان ، وطارق الخيلاني فهما يلحان في رسم الثورة في يومها ، وفي ذلك ذخيرة مضمونية رائعة ، الا انهما لا يستطيعان ان يقدما تزاوجا للفانتازيا والفنائية بشكل خصب ورائع ، ولذلك فقد كانت لوحات هشام ومنها « يوم الثورة » و « البيان رقم ١ » ولوحات طارق الخيلاني « حد واحدة من اجل الثورة » « ولن ننسى فلسطين ». كانت تجسيما لجلال الموضوع وهو موضوع خطير ، بالضرورة ، ولكن في شكل لم ينل عناية دقيقة جدا ، وان بدا المضمون سليما .

ومثل ذلك يمكن ان يقال عن الفنان عبدالله امين الذي قدم لوحة واحدة هي « السلام » والتي بدا فيها التعجل واضحا ، وان كان ذلك قد قدم عفوية

ـ التتمة على الصفحة ٩٧ ـ

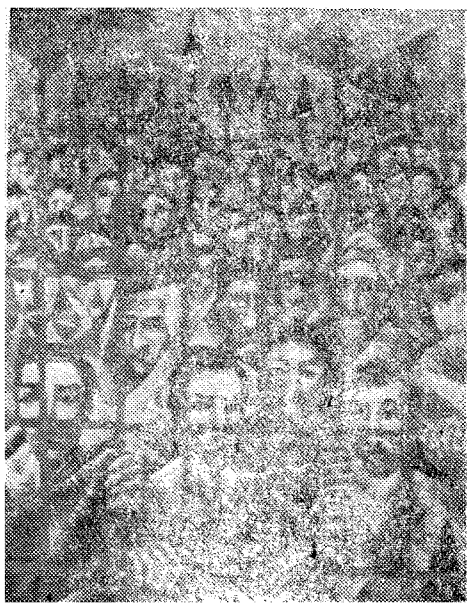

السجن الكبير ـ لوحة للفنان سعد الطائي

في معرض الثورة

ـ تتمة الصفحة ٩٧ ـ

مرهفة .. اما عفوية ليث المميز وهي عفوية طفولية تختلط ببساطة ثقافة سنيه الثلاث عشرة ، فهي تستحق التشجيع لجرأة هذا الحدث وشجاعته الادبية .. ولا يمكن ان ننقد لوحتي ليث « عبد الكريم قاسم » و « الى المعركة » من دون ملاحظة هذه الملاحظات . وكذلك فان مواهب الشالجي التي قدمت لوحة واحدة هي « ١٤ تموز » ، واظهرت فيها الشعب نساءه ورجاله يقتحمون في ضراوة اسوار الطغيان، فقد كانت متعجلة هي الاخرى، وبسيطة الى حد السذاجة ، الى درجة ان صورت النساء والرجال يرقصون متميعين .. ولم تفلح في ذلك تعابير الصرامة التي حشرت حشرا، فلا بد ان نلاحظ في ذلك واقع الفنانة الثقافي والمدرسي ، وهي لم تتعد المرحلة الاعدادية .. وهذه امور كان يجب ان تلاحظ ..

اما لوحة الفنان تامر عارف « فجر الحرية » فقد كانت طيبة رغم التعجل ، وشفيفة بالحساسية رغم التسرع .

وللمجموعة الثانية ، وهم من تبقى من الفنانين ، محاولات نستطيع ان نصنفها ، كما قلنا ، الى محاولات اصيلة موفقة ، ومحاولات موفقة ، الى حد ، ولكنها عادية متسرعة . فمن المحاولات الاصيلة الموفقة نستطيع ان نلحظ لوحات الفنان نوري الراوي الثلاث « دعوة الى الفرح » ، « بين عالمين » و « ألفه » وهي لوحات طيبة بدت فيها ملامح الثقافة والوعي بارزة رغم عدم الاهتمام المدقق جدا بالتكنيك اللوني والهندسة العامة . ان « دعوة الى الفرح » وهي لوحة مرهفة بالفنائية ، كانت لوحة ثورية ، رغم خلوها من الدم والضحايا ـ وهي تعابير تبدو ساذجة اذ الح فيها الالحاح المفرط ، وكانت ايضا ، لوحة انسانية النزعة .. وقد كانت فيها السربلة الشعرية متميزة بشكل واضح .

ومثل ذلك يمكن قوله عن كاظم حيدر ، وهو فنان يشارك نوري الراوي في انتمائه الى اسرة الفن المعاصر ، فلوحاته الثلاث « الثورة العراقية » ، « ١٤ تموز » ، « ارى في ايديكم قوة احطم بها الاستعمار » ، لوحات تنم هي الاخرى ، عن ثقافة وتبلور في وعي تقدمي.. واذا اضفنا الى ذلك ان لوحاته كانت كبيرة لدرجة يمكن ترشيحها كلوحات جدارية ، وان الرموز في « الثورة العراقية » كانت ثورية حقا .. لاحظنا كيف كان كاظم موفقا ، لحد كبير ، في تصوير الثورة ، وفي التعبير عن رأيه عبر الطريق شبه التعبيري ، والواقعي، والتكنيك الحديث الذي اتبعه . فهذه اللوحة تظهر الشعب السجين ، والشمس الكالحة ، والقيود الثقال... وتظهر في الوقت ذاته ، لى جنب ذلك ، انتفاضة الشعب وتحطم القيد ، لكن الانتفاضة تبقى أسيرة ، حبيسة ، لان الجندي لا يشارك ... وحين يشارك الجندي في جانب ثالث من نفس اللوحة في الانتفاضة ،وهوما اظهرته ثورة ١٤ تموز ، ينحسر الكابوس ، ويقتل الغول ، غول الاستعمار وخونته وتردم الجيفة ، جيفة التفسخ والاهتراء الذي قدمته اللوحة ايضا في جانبها الاوسط ... وهكذا كانت الثورة العراقية ثورة شعبية ظافرة في تبرعمها وتطورها ونصرها .. اما لوحة ١٤ تموز فقد كانت غير موفقة توفيق هذه اللوحة التي حللنا ، وبدت في اطارها العام مفرغة للحقد الشعبي المقدس ضد الخونة .. والاهم من ذلك ان نلحظ ان الهندسة اللونية كانت طيبة، على وجه العموم ، وان التنكنيك الحديث الذي اتبعه كان خير سبيل للتعبير عما يريد ..

اما الفنان طارق مظلوم والذي يزاوج بين الفنون القديمة ، سيما الفن الفارسي والاشوري ، وبين الفن الحديث ، في سبيل ابراز شخصية متميزة للفن العراقي ، فقد كان مكثرا ، نسبيا ، في لوحاته ، وخصبا ايضا في النوعية .. فلوحاته الخمس « شعلة الحرية » و « الحرب والسلام » و « واقعة الجسر الخالدة » و « الشيخ والرعية » و « انطباعات فجر ١٤ تموز » .. هي لوحات أصيلة الطيبة ، رائعة الموضوع والمضمون ، الى امتيازها في التكنيك .. فاذا حللنا لوحته « الشيخ والرعية » ، لحظنا ان الفنان طارق يحشر ، بشكل مقبول ، ابعادا متنوعة للموضوع والمضمون الذين يريد .. فالاقطاعي الذي يسهر حتى الصباح بجنب عاهرة في ملهى، ... والفلاح الذي يكدح حارثا ، باذرا ، حاصدا .. والنسوة الفلاحات وهن يتلقين الاستغلال المركب في المجتمع الاقطاعي... والماشية ، والنخيل، والاشجار ، وقلعة الشيخ الاقطاعي .. وكل ذلك يعيش في السجن الكبير الذي فرضة الاقطاع بمعاونة الاستعمار .. واذا تأملنا لوحة اخرى للفنان ذاته عن عهد الثورة ، بعد ان طافت بنا لوحته السابقة العهد الاستعماري الاسود ، لوجدنا تصميمه رائعا ، في بعده الجداري اولا ، وفي مزاوجته للفنائية والواقعية ، وفي هندسته اللونية الخصبة ، وفي جمعه الذكي والمرن لفصول النضال الثوري .. فقصر الرحاب ، قصر الخيانة ، يلتهب وقد ارتقاه الجنود ودمره رصاص الجيش .. وفي القاعدة واجهة سجن كبير .. وسجين يتلظى ويتحرق .. وسجين آخر يعذب .. وبوليس يقوم بدوره ككلب حراسة .. والشعب يندفع ، رغم كل ذلك ، حاملا شعلة الحرية .. وفي جانب اللوحة الاوسط يحمل الشعب جثة سجين شهيد ، مندفعا وراء فتاة توقد الشعلة الثورية ... ويحرس اللوحة في جانبها سجينة سياسية وسجين سياسي .. وكلاهما قد كسرا القيد .. ليندفعا مع حمامات السلام .. نحو النور ..

اما الفنان اسماعيل فتاح الترك ـ وهو من درسنا في عدد سابق من الاداب منحوتته « جميلة » ـ فهو يقدم هنا لوحة زيتية شبه جدارية بعنوان « ١٤ تموز » .. وفي هذه اللوحة يظهر الشعب ممسكا بخناق الخونة ، ، والجنود يوقدون شعلة الحرية .. والسجن مرموزا اليه في شباك في قاعدة اللوحة ، تطوف فيه حمامة سلام لتنطلق فيما بعد مع نسم الحرية ... وتحرس اللوحة في خلفيتها صورة جامع بغدادي ... وكانت الهندسة اللونية تخدم اللوحة ، موضوعا ومضمونا ، خدمة رائعة ... الا ان التعجل ـ والتأثر بلوحة الفنان محمود صبري « مجزرة في الجزائر » (وهي ما سبق ان درسنا في عدد سابق من « الآداب ») ، الذي تأثر بدوره « بكرنيكا » لبيكاسو .. حرما اللوحة من استيعاب مدقق كان يمكن ان يمنح اللوحة ابعادا جديدة . على ان المهم ان نقول ان الكفاءة المضمونية في اللوحة كانت طيبة ، على وجه العموم ، وبشير انطلاق ثوري للفنان .

وللفنانين الثلاثة قصي عزام ومهدي البياتي وعيسى حنا لوحات طيبات على وجه العموم . فلوحة عيسى حنا « الاقطاع » كانت ثورية حقا في الرمز والبيان ، في اللون والمضمون والسبك .. الا ان لوحة قصي كانت تحتاج استيعابا اكثر ، « فصانع التاريخ » وهي لوحته الوحيدة في المعرض

تظهره قد تعجل التصوير ، وهو مع ذلك أبرز عجلة التاريخ التي يدفعها السجناء السياسيون ، وهم طليعيو الشعب العراقي ، مع شعلة الحرية التي يدفعها احدهم ، اقول ابرزهما بشكل مرن نستطيع ان نلحظ فيه تطور هذا الفنان عن لوحاته السابقة ، وتقدمه المبشر .. اما مهدي البياتي فلوحته « مصرع الخائن » ساذجة ، للاسف .. ولكن لوحته : عودة السجين .. كانت نابضة بالحيوية ، وبالسربلة الشعرية ، والغنائية .. وقد كانت انسانية النزعة بشكل طيب ومشجع ..

اما الفنانون عبد الامير القزاز وصديق احمد وسعد الطائي وخالد الجادر وخالد حمدي وحميد العطار واكرم شكري وقريش داود ، فقد قدموا لوحات طليعية من حيث الموضوع والمضمون ، وهم قد تقدموا ، في هذه اللوحات ، تقدما عظيما عما سلف لهم عن اللوحات والاعمال الفنية السابقة ، ويمكن ان يقال ان ذلك هو تطورهم المنطقي والمحتوم . فلوحات خالد الجادر « الى الرحاب » و « سواعد السلام » و « حلف بغداد بعد العدوان على مصر »» (مع لوحته التي لم تعرض « الاستعمار يتغزل بالشرق الاوسط ») هي لوحات شفيفة بصراع ثوري اجتماعي مظفر كانت ارهاصاته تختنق ، وقد تبين احيانا ، في لوحات الجادر السابقة . ولوحته « سواعد السلام » على وجه التحديد لوحة رائعة جدا من حيث الموضوع والمضمون ، فالساعد الكادح الثائر يحمل حمامة السلام في يد ، والسيف الرهيب في يد اخرى .. وهي لوحة تستحق الاعجاب ... ، رغم خطابيتها وصخبها ، الامر الذي شاهدناه في مثل لوحة ، «الى الرحاب» اما لوحة خالد حمدي « اغنية السلام » فقد كانت لوحة رائعة متسربلة شعريا وغنائية بشكل مبهج حقا .. فالجماهير العربية والكردية تلتحم سوية رافعة حمامات السلام ، والبنادق ، وهي تقود الشعب العراقي في سيره المظفر نحو الحرية . الا اننا نأخذ على حمدي اقلاله وتعجله . ومثل ذلك يمكن ان يقال عن الفنان سعد الطائي الذي قدم لوحتين فحسب هما « فجر ١٤ تموز » و « السجن الكبير » . وفي « السجن الكبير » يبدع سعد ، موضوعا ومضمونا وتكنيكا ، في تصوير فاجعة سجن كل شعب مستعمر ، وفي رسم اكثر من ذلك ، واقع الثورة وجذرها. اما الفنان المجيد اكرم شكري فلوحته الوحيدة « مسرحية العهد البائد » لوحة تستحق التقدير رغم كون الفنان لم يكرس لها ما تستحق من وقت واستيعاب ، فالخيانة والدعارة في جانب .. تحرقها شعل الايمان والنضال الشعبي الثوري في جانب اخر .. الا ان اللوحة تنم عن تحسس ثوري للفنان كان يتبرعم في لوحاته السابقة . ومثل ذلك القول عن صديق احمد وحميد العطار وقريش داود ، فلوحتا صديق احمد الثورة (١) و (٢) لوحتان جديرتان بالتأمل لما فيهما من تعاون عضوي وظيفي للشكل والمضمون.. وكذلك لوحة حميد عطار « لا نريد الحرب » .. ولوحة قريش عن « الكابوس » ، وهي تعبير هائل عن الاستنكار للحرب وجرائمها وفظاعتها ، فالجسم العاري المشوه ، والعيون التي تلمع حجرية ، وحمامة السلام الذبيحة ... والجو المأساوي الكالح .. كل ذلك يعاون الفنان في التعبير عن رأيه الانساني . ولكن ذلك كله لا يبلغ التعبير الثوري الواقعي الذي قدمه عبد الامير القزاز في لوحته « الحرب والسلام »

اما المحاولات الموفقة الاخرى والتي كانت عادية احيانا او تقرب من العادية فهي ما قدمه رعيل كبير من الفنانين الذين تعجلوا ، او اغمضوا في البيان ، او لم يستوعبوا المحتوى الثوري ، او تعثروا في الجوانب الشكلية واهملوا المضمون ، او اهملوا الشكل وابرزوا المضمون ، او وقعوا باسارى اللون والموضوع .. فلوحتا فائز الزبيدي « الصمت والانسان والزمن » و « اغنية السلام » لوحتان طيبتان ، على وجه العموم ، الا ان الاغراق في السريالية والخطوط التجريدية قد افقدا اللوحتين محتواهما الثوري ، فبدتا وكأنهما حذلقة وتعال عن الشعب المتفرج ـ وواعيته . ومع ان المحتوى كان في الحقيقة ـ ثوريا الا ان الغموض كان بارزا لدرجة تعسر على فهم كثير من ابناء الشعب ـ وحتى بعض المثقفين ـ الفهم الكلي لما اراد الفنان ، وقد كان حريا به ان يدك الرمز المغلق او ان يخفف منه في العهد الجديد ـ الى البيان الواضح . ولوحات الفنانات ناثرة الكتاب ، ونزيهة رشيد ،وحياة حافظ لوحات تنم عن تحسس انساني ، وهندسة لونية بارعة ، الا ان الاستيعاب لم يكن تاما كما لحظنا في مثل لوحات مظلوم ونوري الراوي وحيدر ، وكما في مثل لوحات محمود صبري التي درسنا في اعداد سابقة من الآداب . ومثل ذلك يمكن ان يقال عن لوحات طيبة الموضوع ، طيبة المضمون ، ولكن غير متكاملة التكنيك . فلوحة عاليه القره غولي وبديعة امين ووجيهة ما شاء الله ، اللاتي قدمن لوحات « بعد الثورة » هي كلوحة «تموز شهر الشعوب» لناثرة وكلوحة وجيهة « مظاهرة فرح » .. تجسيم اصيل للمحتوى ، ولكن بشكل غير متناسق ، كان يمكن ان يكون احسن لو تلقى الاستيعاب والتأني الاطول . اما وداد الاورفلي فقد كانت ارستقراطية الحس في تعبيرها عن الثورة ، ولم تستطع ، رغم محاولاتها المتعددة ، هضم محتوى الثورة ، وان استطاعت ذلك نسبيا في لوحتها « العصر الاسود » الذي قدم الوجه السالب من العهد البائد .

على ان الدلالات الانشائية كانت قد توضحت في لوحات الفنانين الاتين، رغم كونها كانت بسيطة ، وعادية ، وعلى انها موفقة ، كمحصلة نهائية في ابراز المضمون الثوري للموضوع الثوري . ففازي السعودي في لوحتيه: « سحق الطغاة » و «الاحرار» .. وعبد الوهاب رحيم في لوحته «١٤ تموز» ومحمد رفيق في لوحته « فجر الحرية » .. وخالد البصام في لوحته: « انتفاضة الثورة » .. وسلمان داود في « اللحن الجديد » ... وصلاح القاضي « ايدك على ايدي » وصفوة العاني « حياة بلا مستحيل » .. كل هؤلاء قد قدموا محتوى ثوريا ، الا ان التسرع قد انقص من سخاء العطاء في التكنيك وفي المضمون معا . اما لوحة الفنان عطا صبري « حارس الجمهورية » ولوحة الفنان قاسم ناجي « انطلاقة ١٤ تموز » فقد كانتا تكثيفا لآرائهما كفنانين عبر لوحتيهما ، وان كانتا قنطرة نحو لوحات لا بد ان تكون اروع واتم في مستقبل قريب ، وان كان الجو الاسطوري قد كلس المحتوى الثوري في لوحة قاسم ناجي .

بقي ان نقول ان فنانين اخرين كوضاح الورد وياسين الاسدي وياسين شاكر وضرار وعبد الحكيم وعبد القادر وغالب وحامد وحازم وحارث وموريس ولقمان ، كانوا يمكن ان يقدموا عطاء اتم واروع لو دققوا في تجربتهم الشعورية واللاشعورية للثورة وان كان ذلك لا يمنع القول انهم حققوا تطورا ثوريا كبيرا في فنهم الواقعي.

وبقي ان نقول ان معرض الثورة كان طريقا ونقطة انطلاق فحسب نحو الفن العراقي الجديد في العهد الجديد .

بغداد — **جليل كمال الدين**